الضياء المقدسي
صاحب كتاب «فضائل الأعمال»

(569 ـ 643 هـ/ 1174 ـ 1245م)

إعداد: عبد الرحمن هاشم

جمع بين فقه الحديث ومعانيه، ونظر في الفقه وناظر فيه، وكتب عن أقرانه، ومن هو دونه، كخطيب مَرْدا، والزين بن عبد الدائم، وحصّل الأصول الكثيرة، ونسخ وصنَّف، وجرَّح وعدَّل، وصحح وعلل، وقيّد وأهمل، وكان الرجوع إليه في هذا الشأن مع الديانة والأمانة، والتقوى والصيانة، والورع والتواضع، والصدق والإخلاص، وصحة النقل.

إنه محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور، الشيخ الإمام الحافظ القدوة المحقق المجوّد الحجة، بقية السلف، محدّث الشام، شيخ السنة، ضياء الدين أبو عبد الله السعدي المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب التصانيف والرحلة الواسعة. وأمّه هي أخت الفقيه ابن قدامة المقدسي. وخالته هي زوجة الحافظ عبد الغني المقدسي. وغالبية أسرته كانوا من العلماء المبرزين. وأشار ابن رجب إلى أنه شهد تحرير بيت المقدس مع الناصر صلاح الدين الذي استنفر الناس عامة للجهاد وخاصة العلماء المقدسيين.

ولد سنة تسع وستين وخمسمئة بالدير المبارك في قاسيون وانتقل إلى رحمة الله تعالى في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستمئة.

لـزم الحافـظ عبـد الغني المقـدسي وتخـرج عليـه، وحفظ القـرآن وتفقـه فيه، وَسـمع من: الدمشـقيين، والبغداديين، والأصفهانيين، والنيسـابوريين، والهرويين، وَكتب عَن أَكثر من خَمْسـمئَة شـيخ، ورحل أولاً إلى مصر سـنة خمس وتسـعين ورحل إلى بغـداد بعد موت ابن كليـب –ومـن هو أكبر منه – وسـمع من ابن الجوزي، ورجع إلى دمشـق بعد السـتمئة، ثم رحل إلى أصبهان فأكثر بها وحصّل شـيئاً كثيراً من المسـانيد والأجزاء، ورحل إلى نيسـابور فدخلهـا ليلـة وفاة الفـراوي، ورحل إلى هراة مرو مدة، وسـمع بحلب وحـران والموصل، وحاز أصولاً نفيسـة فتح الله بها عليه هبةً وشراءً ونسـخاً، كما سـمع بمكة، ولم يزل ملازماً للعلم والرواية والتأليف إلى أن مات، وتصانيفه نافعة مهذبة.

أنشـأ مدرسـة إلى جانب الجامع المظفـري، وكان يبني فيهـا بيده، وأعانـه عليها بعض أهل الخـير، وجعلهـا دار حديث وأن يسـمع فيها جماعة مـن الصبيان، وقف بهـا كتبه وأجزاءه، وفيهـا مـن وقْف الشـيخ الموفق والبهاء عبد الرحمـن، والحافظ عبد الغنـي، وابن الحاجب، وابن سـلام، وابن هامل، والشـيخ علي الموصـلي، وقد نُهبت في نكبة الصالحيـة نوبة غازان وراح منها شيء كثير ثم تماثلت وتراجعت.

وكان –رحمه الله – يقتنع باليسير، ويجتهد في فعل الخير، ونشر السنة، وفيه تعبد وانجماع عن الناس، وكان كثير البرّ والمواسـاة، دائم التهجد، أمّاراً بالمعروف، بهي المنظر، مليح الشـيبة، محبباً إلى الموافق والمخالف، مشتغلاً بنفسه.

وأجاز له الحافظ السلفي، وشهدة الكاتبة، وعبد الحق اليوسفي، وخلق كثير.

وسمع في سنة ست وسبعين وبعدها عن أبي المعالي بن صابر، والخضر بن طاووس، والفضل ابـن البانياسي، وعمر بن حمويه، ويحيى الثقفي، وأحمد بن علي بن حمزة بن الموازيني، ومحمد بـن حمـزة بـن أبي الصقر، وابـن صدقة الحـراني، وعبد الرحمـن بن علي الخرقي، وإسـماعيل الجنزوي، وبركات الخشوعي، وخلق كثير بدمشق. وأبي القاسم البوصيري، وإسماعيل بن ياسـين، وعدة بمصر. وأبي جعفر الصيدلاني، والقاسـم بـن أبي المطهر الصيدلاني، وعفيفة الفارفانيـة، وخلـف بن أحمد الفراء، وأسـعد بن سـعيد بـن روح، وزاهر بن أحمـد الثقفي، والمؤيد بن الإخوة، وخلق بأصبهان. والمؤيد الطوسي، وزينب الشـعرية، وعدة بنيسـابور. وأبي روح عبـد المعـز بـن محمـد، وطائفة بهـراة. وأبي المظفر بن السـمعاني، وجماعـة بمرو.

والافتخار الهاشمي بحلب. وعبد القادر الرهاوي وغيره بحرّان. وعلي بن هبل بالموصل وبهمذان، وغير ذلك.

روى عنه خلق كثير، منهم: ابن نقطة، وابن النجار، وسيف الدين بن المجد، وابن الأزهر الصريفيني، وزكي الدين البرزالي، ومجد الدين بن الحلوانية، وشرف الدين بن النابلسي، وابنا أخويه الشيخ فخر الدين علي بن البخاري والشيخ شمس الدين محمد بن الكمال عبد الرحيم، والحافظ أبو العباس بن الظاهري، وأبو عبد الله محمد بن حازم، والعز بن الفراء، وأبو جعفر بن الموازيني، ونجم الدين موسى الشقراوي، والقاضي تقي الدين سليمان بن حمزة، وأخواه محمد وداود، وإسماعيل بن إبراهيم بن الخباز، وعثمان بن إبراهيم الحمصي، وسالم بن أبي الهيجاء القاضي، ومحمد بن خطيب بيت الأبار، وأبو علي بن الخلال، وعلي بن بقاء الملقن، وأبو حفص عمر بن جعوان، وعيسى بن معالي السمسار، وعيسى بن أبي محمد العطار، وعبد الله بن أبي الطاهر المقدسي، وزينب بنت عبد الله بن الرضا، وعدة.

قال الشيخ شمس الدين: سمعت الحافظ أبا الحجاج المزي وما رأيت مثله، يقول: «الشيخ ضياء الدين أعلم بالحديث والرجال من الحافظ عبد الغني، ولم يكن في وقته مثله».

وقال عنه الحافظ محب الدين بن النجار في تاريخه: «حافظ متقن ثبت صدوق نبيل، حجة عالم في علم صحيح الحديث وسقيمه، مجاهد في سبيل الله، محتاط في أكل الحلال، ما رأت عيني مثله».

وقال عمر بن الحاجب: «شيخنا الضياء شيخ وقته، ونسيج وحده، علماً وحفظاً وثقة وديناً، من العلماء الربانيين، وهو أكبر من أن يدل عليه مثلي».

وقال عنه الشيخ عز الدين عبد الرحمن بن العز: «ما جاء بعد الدارقطني مثل شيخنا الضياء».

وقال عنه الحافظ شرف الدين يوسف بن بدر: «رحم الله شيخنا ابن عبد الواحد، كان عظيم الشأن في الحفظ ومعرفة الرجال، هو كان المشار إليه في الحديث وأحوال الرجال، له مجموعات وتخريجات، وهو ورع تقي زاهد عابد محتاط في أكل الحلال، مجاهد في سبيل الله، ولعمري ما رأت عيناي مثله في نزاهته وعفته، وحسن طريقته في طلب العلم».

له مصنفات فِي أَكثر الْعُلُوم، وأجلّها مصنفاته فِي علم الحَدِيث، وَمِنْهَا كِتَابه الْمَشْهُور «الْأَحَادِيث المختارة» الَّتِي صحّح فِيهَا مَا لم يسْبق إِلَى تَصْحِيحه، وَسلم لَهُ قَوْله فِيهَا، وَذكر

ابْن تَيْمِية وَالزَّرْكَشِيّ، أَن تَصْحِيحه أعلى مزية من تَصْحِيح الْحَاكِم، وَأَنه قريب من تَصْحِيح التِّرْمِذِيّ وَابْن حبَان.

ومن تصانيفه كذلك:

ـ كتاب «فضائل الأعمال» مجلد، مطبوع، وَهُوَ جيد فِي بَابه.

ـ كتاب «الأحكام» في ثلاثة مجلدات.

ـ «الموافقات» في نحو ستين جزءاً.

ـ «مناقب المحدثين» ثلاثة أجزاء.

ـ «فضائل الشام» جزءان.

ـ «صفة الجنة» جزءان.

ـ «صفة النار» جزءان.

ـ «سيرة المقادسة» مجلد كبير.

ـ «فضائل القرآن» جزء.

ـ «فضائل الجهاد» جزء.

ـ «شفاء العليل» جزء.

ـ «سبب هجرة المقادسة إلى دمشق وكرامات مشايخهم» نحو عشرة أجزاء.

ـ «ذكر الحوض» جزء.

ـ «النهي عن سبّ الأصحاب» جزء مطبوع.

ـ «سيرة سيخيه الحافظ عبد الغني والشيخ الموفق» أربعة أجزاء.

ـ «قتال الترك» جزء.

ـ «فضل العلم» جزء.

عاش أربعاً وسبعين سنة، وتوفي في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستمئة ودفن في سفح جبل قاسيون، رحمه الله رحمة واسعة.

مراجع للاستزادة:

- سير أعلام النبلاء 23 – 126 – 131.
- تذكرة الحفاظ للذهبي 4/ 1405 – 1406.
- الوافي بالوفيات 4/ 65–66.
- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب 2/ 236 – 240.
- النجوم الزاهرة 6/ 354.
- فوات الوفيات لابن شاكر 3/ 426 – 427.